من تراثنا الكنسي الحديث

وجه الله في حضارات بلاد بين النهرين

الاب المرحوم د. يوسف حبي (القيت في مؤتمر وجه الله قبل سنة 2000)

نشر ابرشية البصرة والجنوب الكلدانية 2026

تقديم

يوحي العنوان بوضوح ان كلامنا انما يدور حول (وجه الله)في حضارات بلاد بين النهرين القديمة. ونفضل ان نقدم الافكار الرئيسة منذ الان لاعتمادها محاور في بحثنا هذا وهي :

1. ان الله قد طبع صورته في الانسان

2. لكن صورة الله لم تكتمل في الانسان

3.بل ان صورة الله عينها ليست واضحة الملامح

4. هذا كله يدفع بالإنسان لكي يعمل دوما على مزيد من كشف للتوصل الى تشخيص ملامح وجه الله، كما ولاستكمال هذه الملامح في ذاته، عله يلقى (وجه الله) اخيرا ورب معترض يقول: أيحق لنا ان نتحدث هكذا، وكأن مفهوم اولئك القدامى عن الله شبيه بمفهومنا الحالي؟ ونجيب بالتأكيد كلا، مع ابداء الملاحظة التالية ذات الأهمية البالغة ومفادها : نحن نعلم اننا ازاء مفاهيم عدة عن الله سواء في الازمنة الغابرة، كما في أيامنا. فان وجه الله مختلف باختلاف الديانات والاتجاهات الفكرية، بل هو كذلك من مجتمع وفرد الى آخر، وحتى في الانسان الواحد وفق مراحل العمر والثقافة والظروف. ونتساءل: أهي معرفة نسبية اذن؟ وكيف نوفق بينها وبين هذا الكائن المطلق؟ انها تساؤلات محيرة لن تلقى لها أجوبة سهلة، ولعل الكشف عن وجه الله في الحضارات القديمة، كما في التاريخ الفكري والديني وواقع الحياة يقدم لنا وضوح ملامح لاستكمال الصورة الاروع.

أولاـــ صورة الله في الانسان

تقول ملحمة كلكامش عن الانسان انه "هو الذي رأى كل شيء"، "الذي عرف الارض كلها"، "العزيز الحكمة الذي عرف جميع الامور"، "رأى الاسرار والخفايا"، "حمل معارف ماقبل الطوفان"(اللوح 1، العمود 1: ملحمة كلكامش، نص د. سامي سعيد الاحمد)

انها امور تتعلق خاصة بالنظر، ولكن لا ينبغي ان (لا!) نغفل بان الرؤية الكاملة هي اول صفة ملازمة لله، لانه عقل وفكر وبصيرة وحكمة. نقرأ في ترجمة أخرى ان الانسان كلكامش "رأى كل شيء... حكيم عليم، يعرف كل شيء... يدرك الاسرار، يعرف ما يخفي على الناس (نص أنيس فريحة). وهنا يصف النص الانسان بهذه الصفات الالهية، لذا حق له ان يقول بعد قليل ان الانسان كلكامش"ثلثاه اله وثلثه بشر، وصورة

شكله لاتوازي"(اللوح 1، العمود 2). فمعلوم بان (أنكي) أو (أيا) هو اله الحكمة، منظم الحياة على الارض، وهو والد الاله (مردوخ) الذي صنع منازل الالهة وخلق الابراج وحدد الازمنة. بيده اذن المصائر، فهو الاله حقا، الخالق(كما سنرى)، وهو المدبر، وفق عقلية دينية معروفة. وتصبح صورة الله في الانسان دم الاله نفسه، منه يتم خلق الانسان، كما نقرأ في ملحمة الخلق (اينوما اليليش ـ في العلي عندما)، اذ يقول مردوخ: "اني خالق دما، اني خالق عظما، منهما سأخلق الانسان"ويتم قتل الاله كنجو، وتقطع شراييه، فيسيل الدم"ومن الدم خلق الانسان"(اللوح 6). وفي نص آخر نقرأ عن عملية خلق الانسان هكذا: "حينما سمع مردوخ نداء الالهة، قرر ان يخلق عملا جميلا. وكلم أيا بشأن ذلك بصوت عال، واطلعه على ما قد قاله في نفسه""اريد ان اصنع شبكة من الدم واكون هيكلا عظيما، واقيم كائنا بشريا، وليكن اسمه الانسان. أريد ان أخلق هذا الكائن البشري، هذا الانسان"(نص لابات، اللوح 6)

وتوضح اسطورة (الطوفان) ذلك نتقول:"ليذبح أحد الاهة... ومع لحمه ودمه، فلتمزج الالهة نينتو كينا، وليكن امتزاج الاله مع الانسان كليا في الطين... لتكون روح من لحم الاله، ولينادي بالانسان الحي رمزا لها، ومن أجل الا ننسى هذا، فلتكن هناك روح " (العمود 4، نص د. فاضل عبد الواحد علي). وبحسب نص آخر لاسطورة (اترخاسيس) بطل الطوفان نقرأ: "بلحمه ودمه مزجت نينتو الطين....ونتاج لحم الاله كان"روحا"، ومثل الحي، اظهر الانسان بهذه العلامة. ولكي لا ينسى، كان ثمة "روح". وبعد ان عجنت نينتو هذا الطين، دعت الالهة العظام انوناكي، وبصقوا على الطين"وبذلك كمل عمل (مامي) اذ تم ذبح اله "مع عقله"(نص لابات، س 225ــ235). ويفيدنا النص بان الاله والانسان هما ممزوجان سوية في الطين (س 212ــ 213). انها دلالة على تشابه الحالة التي ارادها الاله للانسان الذي خلقه. فليس الطين هنا عنصر وضيعا، كما اعتدنا ان نفسر، بل هو العنصر المشترك بين الالهي والبشري، وجميل ان يكون المشترك ارضيا بشريا ايضا، اضافة الى عنصر الدم الالهي. فالاله والانسان من "طينة "واحدة!

ثانيا ــ صورة الله الناقصة في الانسان

لكن الانسان، على الرغم من انه مخلوق من قبل الاله، بل من دم اله ولحمه، ومن الطين "المشترك"، فانه يبقى ناقصا، ولايحق ان ننعته باله. انه بشر.

لنفرأ ماجاء في ملحمة (اترخاسيس) على لسان الالهة وهم يوجهون كلامهم للالهة بيليت ــ ايلي قائلين: "فلتخلق كائنا بشريا، الانسان. ليحمل النير... ليحمل النير. ليحمل نير المهمة التي فرضها انليل، ليضطلع الانسان بعبء الاله الثقيل "(نص لابات، 5، 195).

فقد "خلق الانسان ليعبد الالهة، يخدمها"(نص فريحة، اللوحة 6). فالغاية من خلق كائن هو الانسان، ان يحرر الالهة من عناء التعب، وهذا غير كاف للقول بان الانسان اقل من الالهة الا في الواقع بعد ان تركت الالهة العمل المضني للبشر، فهي استعاضة لابد ان تلقى لها خلفية وجودية. فلنبحث عن حقيقة الانسان في نصوص آخرى.

تفيدنا ملحمة (كلكامش) بان الانسان الذي خلقته الالهة هو ثور وحشي هائج، لم يترك ولدا لابيه، ولا بنتا لامها، وظلمه مستمر ليلا نهارا، لذا نستدعي الالهة الربة أرورو وتسالها ان تخلق له غريما، فيكون أنكيدو في البراري، بينما كلكامش في المدينة، ويتصارعان، فتهدأ المدينة (اوروك) (اللوح 1، العمود 2). وتقود

البغي انكيدو الى اوروك، لكي يرى كلكامش وجهه"، وتبرز خاصة ملامح قوته وبأسه. ويبدو وكأنه يشبه كلكامش، لكن قامته اقصر قليلا وشكيمته اقوى، ونلقاه يجدد كلكامش "الظاهر مثل الرب"

(اللوح 2، العمود 5) على الرغم من السلبيات، نجد في هذه النصوص التأكيد على الحيل والقوة والعظمة، وهي من الصفات الكبرى للالهة في الذهنية الحضارية عادة.

وللتعرف على الالهة من جهة والبشر من الناحية الاخرى، نستمع الى كلكامش وهو يتحدث الى خله وصديقه انكيدو: "من (يا صديقي) يطاول السماء. الرب (فقط) يبقى الى الابد مثل الاله شمس اما البشر فايامهم معدودات. واي شيء ينجزونه (انما هو) ريح. وانت الان تخشى الموت...." (ملحمة كلكامش، اللوح3، العمود4). وتضيف صاحبة الحانة مخاطبة كلكامش بقولها: "ليس (هناك) اي عبور يا كلكامش في اي وقت. ومنذ اقدم الازمنة قد وصل (و) لم يتمكن من عبور البحر. شمش البطل يعبر البحر المظلم. فمن يعبره غير شمش". وتوجهه الى اورشنابي ملاح اوتو نبشتم "ليرى وجهه"، علع يساعده على العبور (العمود 2 من النسخة الاشورية). وهذه سمة اخرى بالغة الاهمية تتصف بها الالهة بنوع خاص، الخلود. وهي ان سرت على البشر فمن باب اخر هو فضل الاله، لأن الانسان ريح او روح منه.

ثالثا ــ صورة الله غير مكتملة الملامح

لان اعتقاد اهالي بلاد بين النهرين القدامى والشعوب القديمة كان بتعددية الالهة، فاننا نلقى الهة مخلوقة. وقد بلغ عدد الهة وادي الرافدين 2500يحسب قائمة بابلية عثر عليها في مكتبة اشور بانيبال في نينوى، تمكن الباحثون من تشخيص 2300-2400 منها..فهناك اله لكل مدينة، ولكل ظاهرة، بل ولكل اسرة احيانا. واختلفت الاسماء والوظائف باختلاف الازمنة والممالك والاوضاع. ولعلها نعوت وصفية لاله واحد (للاله الواحد؟) كاسماء مردوخ الخمسين (انظر: جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ترجمة د. وليد الجادر، بغداد 1970).

مهما يكن فان اسطورة (خلق الانسان تفيدنا بان الاله آن، اله السماء، هو الذي خلق (الأنوناكي) على جبل السماء والارض، بينما لم يكن (اشنان) اله الغلة قد خلق بعد، ولا (اوتو) الهة النبات، بل ان الأنوناكي لم يكونوا قد عرفوا اسم اشنان) الحكيمة، واسم لاهار) اله الماشية، ولم يكن (سمكان) اله السهل قد ولد بعد، كما ولد الجنس البشري لأول مرة، والجدير بالاشارة بل بالتركيز ان الأنوناكي لم يكونوا يعرفون شيئا عن اكل الخبز، ولا عن ارتداء الثياب. لقد اكلوا النباتات بافواههم كما تفعل الخراف، وشربوا الماء من البرك"الاساطير السومرية، ص ١١٧ - ١١٨). وليست كل الالهة سواء. يتضح هذا من أدبيات حضارات بلاد بين النهرين نكتفي بمقارنة واحدة معبرة، ما بين ننسون وعشتار، فننسون "الحكيمة العارفة بكل شيء"أم كلكامش (ملحمة كلكامش، اللوح ١، العمود ٦ و اللوح ٢، العمود (١) نراها تفسر أحلام ابنها بكل حكمة. اما عشتار فانها تطلب الى أبيها، الاله، آنو، ان يجعل لها ثورا بحجم الثور كلكامش لتتمكن من الاستحواذ على كلكامش بعد ان وقعت عيناها على جماله، وبكل ابتذال

تطلب منه ان يكون زوجها ويمنحها،ثمرته، مغدقة عليه وعودا ذهبية، لكنه يردها بشدة فتخجل وتشكو أمرها الى أبيها، فقد شتمها كلكامش وعدد أفعالها المشينة، وتلح عشتار على أبيها ان يخلق لها ثور السماء ليقف في وجه كلكامش ويملأ جسمه بالجراح، والا فسوف تضرب الباب وتحطم المزلاج وتجعل الموتى يقومون وياكلون الاحياء. لكنها تفشل، لان أنكيدو يساعد كلكامش فيصبحان عظيمين، لانهما أخان، بل واحد (ملحمة كلكامش، اللوح ٦، العمود (٦).

رابعا - تشخيص لملامح وجه الله واستكمالها من قبل الانسان

يبدو مما سبق أن الالهة في حضارات بين النهرين ليست كلها سواء، وبالتالي فليست كلها كاملة، بل اننا نلقى نصوصا تتحدث عن نقص أو أكثر في هذا الاله او غيره، مما يحدونا الى التعميم والقول أن ملامح وجه الله في الالهة القديمة ليس كاملا مكتملا. ونجد شيئا من الدينامية والتصاعدية احيانا، اذ تلمح بعض النصوص الى استكمالات الملامح للوجه الالهي. فلنحاول استقراءها بشيء من التعمق.

لا يمكننا ان نعطي هذا المحور حقه الا اذا أكدنا على تكوين الشخصية الانسانية. ويختلف هذا التكوين عن مجرد عملية النشوء والخلق، فهي عملية نمو وارتقاء وتكامل، فان ظهر بان تفكير انسان بلاد بين النهرين منسجما وهذا الطرح، بات من السهل المجاهرة بان الانسان يكمل في مسيرته التكوينية للشخصية ملامح الله

ونستمد الفكرة التالية من رمزية تمثال شخصه الباحثون (فرانكفورت مثلا) على انه الاله (أبو)، فهو ذو جسم طويل، وشعر ولحية كثيفان ومنتظمان وبروز عينين وسيعتين تستوقفان التظر، مما يوحي بان الفنان اراد ان يؤكد بان هذه الاله بوسعه ان يرى كل شيء. ويرتبد الأمر بما نقرأ في مفتتح ملحمة كلكامش، فهو النظر في الموقع الاول من مقومات الكمال. ونعرف بان الاله (أبو) هو الخصب والولادات والمزروعات والخضار عند السومريين والاكديين على السواء، والنبتة التي في يده رمز القطاف الذي يأتي في الشهر الخامس من السنة البابلية التى تبدأ بنيسان، فهو شهر آب (سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ت سامي سعيد الاحمد، ص ١١١).. وأبو وآب من الاصل (أب)، وهو بالتالي الاله الاب. ألا يوحي الينا هذا كله بالكثير مما سيأتي في الاسفار المقدسة عن الله الاب؟

خاتمة

ولان للدين الموقع الأول في الحضارات القديمة، فان لما أوردناه أهمية كبرى. ولعلنا كخلاصة نقول ان انسان حضارات بلاد بين النهرين اراد منذ أزمنة سحيقة في القدم ان يؤكد بان (وجه الله أعظم من ان يوصف وان كل الملامح الدالة عليه انما هي اشارات ضوئية تدل على أبعاد الكمال وتحث على اقتفاء سبل الخير. وهذه (ترتيلة أريدو) خير معبرة عن هذا المقصد النبيل:

"لما كتب الأجل لجميع المخلوقات، وعندما خلق البشر في احدى سنوات الخير، كالعشب النابع من الارض، بنى الاله أنكي، اله المياه بيته ونودي: الا اعملوا للخير، فيكون (يبنى) بيت أنكي من تلقاء نفسه. واستشيروا ربكم "دوما"

ألا يذكرنا هذا فورا بما في سفر التكوين: "فخلق الله الانسان على صورته على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها...ها قد أعطيتكم كل عشب... ورأى الله جميع ما صنعه فاذا هو حسن جدا"(تك ١: ٢٧ - (٣٢).

وبوسعنا الاكثار من نصوص الاسفار المقدسة التي كانت لها خلفيات واضحة في معطيات حضارات بلاد بين النهرين فهو تواصل واضح، يتحول هما وجدانيا، بل مسؤولية ورسالة ولسنا نوافق الشائع القائل ان العبرانيين انما ورثوا "كل شيء عن الكنعانيين مباشرة Botter, Naissance de Dieu, p.70)، دون التاكيد خاصة على تأثير حضارة وادي الرافدين، لاسيما بعد ان بات معروفا بأن الاسفار المقدسة الاولى خاصة قد تم تدوين معظمها أيام السبي البابلي، وبعده، بحيث ان تأثير حضارة وادي الرافدين هو الذي طبع هذه الاسفار بشبه كبير في الافكار والاستعارات على الاصعدة كافة، وما الفرق الا في الأخذ في الحضارات الرافدية والبينهرينية القديمة بتعدد الهة، والايمان بالاله الواحد من قبل "شعب الله". هذا لا يريد ان يقلل من تأثير الحضارة الكنعانية على عقلية الاسفار المقدسة، لكنه تصحيح ضروري بالعودة الى الاصول الاقدم والتأثرالمباشر الآخر الذي لعبته حضارات وادي الرافدين وبلاد بين النهرين في تكوين مادة الاسفار المقدسة، لاسيما التكوينية منها. مهما يكن فان "وجه الله" ينكشف من خلال معطيات هذه الحضارات ليقدم لنا ملامح تمكننا من الوصول بيسر وعمق الى تلمس الوجه الاكمل لالهنا الواحد. أيسع انسان الألف

الثالث النهوض بسمو هذه الدعوة، الكشف الدائم عن وجه الله فيه وفي الآخر، لتحقيق رسالة هي سامية حقا، بل لعلها الاسمى؟ هذا هو الأمل الكبير.

أهم المراجع

١. الاساطير السومرية، تأليف صموئيل نوح كريمر، ترجمة يوسف داود عبد القادر بغداد ١٩٧١

٢. أنيس فريحه، ملاحم وأساطير من الادب السامي، ط ٢، دار النهار للنشر، بيروت 1979

3. المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، تأليف رينيه لابات، ترجمة الاب البير ابونا و د. وليد الجادر بغداد ١٩٨٨

٤. د. فاضل عبد الواحد علي الطوفان، جامعة بغداد ١٩٧٥

ه. ملحمة كلكامش ترجمة عن الاكدية د. سامي سعيد الأحمد، بيروت - بغداد ١٩٨٤، ونص طه باقر، ط ٤، بغداد ١٩٨٠

٦. تقي الدباغ، الفكر الديني القديم، بغداد ١٩٩٢

7. الديانة عند البابليين تاليف جان بوتيرو، ترجمة د. وليد الجادر، بغداد ١٩٧٠

8. آثار بلاد الرافدين، تأليف سيتون لويد، ترجمة سامي سعيد الاحمد، بغداد ١٩٨٠